الفصل الثالث

شعرنة المعاناة والوجاعة الداخلية عند مظفَّر النوَّاب

1. المعاناة بالتعذيب والعنف والاستلاب.
2. المعاناة بالسجن والكبت.
3. المعاناة بالغربة والحنين إلى الوطن.
4. المعاناة بالحزن والوجاعة الداخلية.
5. المعاناة بتصوير الجرائم والقتل وإراقة الدماء.

- نتائج واستدلالات.

الفصل الثالث

شعرنة المعاناة والوجاعة الداخلية
عند مظفَّر النوَّاب

لا شك في أن التجربة الشعرية الحقيقية لابد وأن تمد جسورها على معاناة حقيقة معاشة في واقعها المأزوم؛ على نحو دقيق تحاول من خلاله ارتياد هذا الواقع بعين ناقدة؛ تتحسس مواطن فساده واتضاعه؛ وتعد المعاناة الحقيقية المعيشة الأرضية الصلبة التي ترتكز عليها روحانية الشعر ومحفزات الكتابة الشعرية؛ وإننا لا نغالي إذا قلنا: لا تجربة شعرية إبداعية حقيقية على الإطلاق بمعزل عن أرضية المعاناة وجذرها التحفيزي، المثير الذي يثير المواقف ويحفِّز الرؤى ويفعِّل الأحداث؛ وكم من التجارب الشعرية قد خمد بريقها واضمحلت رؤيتها الشعرية بغياب الحافز الإبداعي، ألا وهو (المعاناة)؛ وتعد تجربة الشاعر مظفَّر النوَّاب من التجارب الشعرية الغنية التي تتراكم بالمحفزات والمواقف الشعورية المأزومة؛ المكتظة بمداليل الغربة والحزن والوجاعة الداخلية؛ لهذا؛ فحقل المعاناة والتأزم الداخلي – في تجربة النواب – حقل ثري خصب بالمواقف والأحداث والرؤى الاصطراعية الدامية في مسيرة حياته الحافلة بالأزمات والارتكاسات والنوائب الكثيرة ومن ضمنها سجنه المظلم في بغداد.

ومن تدقيقنا في المسار الدلالي لمؤولة المعاناة والوجاعة الداخلية – في قصائد مظفَّر النوَّاب – وجدنا عدة مفاصل أو نقط جوهرية ترتكز عليها هذه التجربة؛ نذكر منها ما يلي:

1. المعاناة بالتعذيب والعنف والاستلاب.

ترتكز قصائد مظفَّر النوَّاب – على المستوى الدلالي – على مؤولات ارتكاسية دالة على التعذيب والعنف والظلم والانتهاك؛ إذ تكتظ معظم قصائده بمداليل العنف والقلق ومظاهر التعذيب والألم، كما في قوله:

«ابتسمَ الجلادُ

كأنَّ عناكبَ قد هربتْ

أمسكني من كتِفي وقال: على هذا الكرسيِّ خصينا بضعَ رفاق

فاعترفْ الآنَ

على هذا الكرسيِّ

اعترفْ الآنَ

اعترفْ الآنَ

اعترفْ

اعترفْ الآنَ

عرقتُ وأحسستُ بأوجاعٍ في كل مكانٍ من جسدي

اعترف الآن

وأحسستُ بأوجاعٍ في الحائط

أوجاعٍ في الغاباتِ

وفي الأنهارِ

وفي الإنسانِ الأوَّل

اللهمَّ أنقذ مطلقك الكامن في الإنسان

توجهتُ إلى المطلقِ في ثقةٍ

كانَ أبو ذرٍّ خلفَ زجاجِ الشباكِ المقفلِ يزرعُ فيَّ شجاعتَهُ

فرفضتُ... رفضتُ... رفضتُ... رفضتُ

وكانت أمي واقفةً قدامَ الشعبِ بصمتٍ.. فرفضتُ

اعترفْ الآنَ

اعترفْ الآنَ

رفضتُ وأطبقتُ فمي

فالشعبُ أمانةٌ في عنقِ الثوريّ

رفضتُ

تقلَّص وجهُ الجلادينَ

وقالوا في صوتٍ أجوفَ: نتركَ الليلة

راجعْ نفسَك

أدركتُ اللعبة

في اليومِ التاسعِ كفُّوا عن تعذيبي

نزعُوا القيد

فجاءَ اللحمُ مع القيدِ»[1].

يحاول الشاعر – في هذه القصيدة – إظهار معاناته من خلال التعذيب الذي لاقاه؛ إذ صور لنا المشهد تصويراً حسياً شعورياً؛ وكأنه يحدث أمامنا رؤيا العين بعدسة مونتاجية تقرب لنا الحدث، بكل فظاظته، وتعسفه، وظلمه؛ وكأنه مصور

(1) النواب، مظفر، 1996 - الأعمال الشعرية الكاملة، دار قنبر، لندن، ط1، ص 500-502.

تصويراً فوتوغرافياً أمامنا بكل مشهديته وحسيته المجسدة، كما في قوله: «اعترفْ الآنَ، عرقتُ وأحسستُ بأوجاعٍ في كل مكانٍ من جسدي، اعترف الآن، وأحسستُ بأوجاعٍ في الحائط، أوجاعٍ في الغاباتِ، وفي الأنهارِ، وفي الإنسانِ الأوَّل».

وهنا، يكشف الشاعر الدلالات التي تؤكد مظاهر الوحشية والتعذيب والانتهاك، وهي لفظة الجلاد والتعذيب، بقوله: «في اليومِ التاسعِ كفُّوا عن تعذيبي، نزعُوا القيد، فجاءَ اللحمُ مع القيد».

ومن مظاهر التعذيب الإحساس بالاستلاب والقهر وتذبذب المواقف، والحالة الشعورية المرتكسة بين اليأس والأمل والإقدام والإحجام والخوف والجسارة، إذ يقول:

«أنا يقتلني نصفُ الدفء

ونصفُ الموقفِ أكثر

سيدتي نحنُ بغايا مثلكِ

يزني القهرُ بنا

والدينُ الكاذبُ

والخبزُ الكاذبُ

والفكرُ الكاذبُ والأشعار

ولونُ الدم يزوَّرُ

حتى في التأبين رماديًا

ويوافقُ كلَّ الشعبِ

أو الشعب»[1]

(1) المصدر نفسه، ص 304 - 305.

يعتمد الشاعر – في هذه القصيدة – إيقاع المكاشفة المدلولية عن جراح المعاناة وتذبذب الأحوال والرؤى والمواقف العربية. وهكذا تأتي المعاناة بالاستلاب والإحساس بالوجاعة غاية في الأسى، والحزن، والمأساة الحقيقية.

2. المعاناة بالسجن والكبت.

لقد عانى مظفَّر النوَّاب من الوضع السياسي الذي عاشه بلده العراق؛ حيث تم سجنه بسبب مواقفه السياسية؛ فجاءت معظم قصائده شعله متقدة من الغضب والعنف، والتقريع الصاخب بالتجاوز والانحراف في المنحى الأسلوبي إلى بعض الكلمات النابية التي تخرج من نطاق العرف والعادة؛ محاولاً إكساب قصائده نبرة حادة تشي بالصراع النفسي القلق الذي يعيشه؛ وتعكس – بشكل أو بآخر – معاناته الوجودية في هذا العالم؛ كما يدل قوله يقول في إحدى قصائده:

«ومهما السجونُ تضمُّ الظلاما

يظلُّ على شفةِ الكادحينَ الغناء

.....

أقفِل فمك فالمباحث من حولنا كالبعوضِ»[1].

ومن مداليل الكبت والإحساس بمصادرة الآراء والحريات ترداد مفردة الصمت في السياق الواحد أكثر من مرة؛ حيث يقول:

«ما بالُ الصمتِ يخربشُ في الموقد

والطباخةُ تخرجُ كالأرغنُ مشرَّعة بالموت

أسئلةٌ كالألوانِ الزيتيةِ في عينيها

لم تجهش بعد

وكم صعبٌ أن لا تجهشَ أمٌّ شهيدٍ

وصلت في أزهارِ اللوزِ

---

(1) المصدر نفسه، ص 276- 277.

في عالمكِ الصمتي الغامض أهمس أمي..

تسمعها أكثر من أيِّ هوائي يلتقط الشارات الكونية

تدري أنكَ في البيتِ لستَ تغادر إلا ليلةَ عيد

ويرين الصمتُ كثوبِ الأرضِ الرطب»[1].

إن من يدقق – في هذه القصيدة – يلحظ الواقع المأزوم الذي يقصد الشاعر تسليط الضوء عليه إذ إن الكبت والصمت يخيم على المواقف العربية؛ حتى الصمت خيم على أم الشهيد فلم تنطق؛ ولم تجهش؛ وكأن حالة الفجيعة وهول المصاب قد أعقد لسانها وأغار ينابيع دمعها، فلم تعد تذرف الدموع، وخيم الصمت الجنائزي الحزين على أرجاء المشهد فغدا المشهد صامتاً حزيناً.

(1) المصدر نفسه، ص 300 - 301.

3. المعاناة بالغربة والحنين إلى الوطن.

إن الغربة ظلت ملازمة للشاعر إلى درجة الإحساس والتأزم المطلق؛ وقد ظل إيقاع الحنين والإحساس بالضياع سمة قصائده الاغترابية التي تضج بالشوق إلى الوطن؛ والحنين إلى العودة إليه بعد سنين الغربة والتشرد والضياع، إذ يقول:

«يا بلادي

يا حزينةَ البيوت

مدِّي يدَ الوشمِ

فقد عدتُ إليكِ بالمعاضدِ الخضراءِ من حياتي

يا حزينةَ البيوت

والآن..

والعالمُ برتقالةٌ تدورُ في بنفسجِ الأرواح

من قوةِ ذاكَ السائلِ الوحشيِّ في أحشائِها

عدتُ إليكِ حاملاً شفرةَ هذا الكونِ وانتهتْ طفولتي

وصرتُ من طفولةِ الوجود»[1].

تتمفصل مداليل هذه القصيدة على الإحساس بالحنين إلى الوطن بعد سنوات الغربة والتشرد والحزن والتيه والضلال؛ وقد فقد طفولته البريئة وعاد إليها بوجه جديد؛ وجه التفاؤل والإرادة والثورة والحث على التغيير، لينشر في بلده الخير والنور والصفاء والخضرة الدائمة؛ إذ يقول: «مدِّي يدَ الوشم، فقد عدتُ إليكِ بالمعاضدِ الخضراءِ من حياتي».

(1) المصدر نفسه، ص 359.

واللافت أن الشعور الاغترابي ظل ملازماً للشاعر في العديد من قصائده الثورية التي تضج بالثورة والتمرد والاغتراب؛ مكرساً جل المداليل الشعرية للتعبير عن هول الجراح وعمق المعاناة بعيداً عن تراب الوطن، وأصعب ما يحس به المرء من اغتراب أنه لا يملك وطناً يأوي إليه ويلقي همومه وأحزانه على راحتيه؛ إذ يقول:

«سبحانكَ كلُّ الأشياءِ رضيتُ سوى الذل

وأن يوضعَ قلبي في قفصٍ في بيتِ السلطان

وقنعتُ بكونِ نصيبي في الدنيا كنصيبِ الطير؛

ولكنْ – سبحانك – حتى الطيرَ لها أوطان

وتعودُ إليها

وأنا ما زلتُ أطيرُ

فهذا الوطن الممتدُّ من البحرِ إلى البحرِ سجونٌ متلاصقةٌ

سجَّانٌ يمسكُ سجاَّنْ»[1].

إن جراح المكابدة والمعاناة تتقطر أسىً وحزناً في هذه القصيدة؛ إذ إن كل جملة تعبر عن المرارة والحزن وجراح الاغتراب؛ مفعِّلاً صدى هذه الجمل بالنبض الشعوري الارتكاسي الحزين؛ لتبدو كل جملة ذات إيحاء شعوري غاية في التكثيف والعمق الشعوري والاغتراب؛ كما في قوله: «سبحانكَ كلُّ الأشياءِ رضيتُ سوى الذل، وأن يُوضعَ قلبي في قفصٍ في بيتِ السلطان».

ومن ذلك قوله:

---

(1) المصدر نفسه، ص 306 - 307.

«فكأنكَ غربة،

وكأنَّكَ كنتَ رصيفـًا في الغربة،

وكأنكَ لا أدري، غربةٌ غربة»[1].

إن الشاعر – في هذه القصيدة – مسكون بالغربة وجراحاتها إلى درجة الانصهار بها؛ حتى كأن الشاعر نفسه غربة في حدِّ ذاتها؛ أي أن الاغتراب بدأ جزءاً متلاصقاً من كيان الشاعر حتى تملّكه من شتى الجوانب كلها؛ وتكنّى به كثوب أو قميص أحاط به من الجوانب كلها على الإطلاق.

وهكذا؛ يؤسس الشاعر دينامية قصائده على الاغتراب والحنين إلى الوطن؛ برؤى دقيقة تكثف المشهد الشعري، وتعمق صدى إيحاءاته الشعورية، لهذا، تبدو المكابدة والمعاناة حقيقية صاخبة في قصائده في جل المواقع والسياقات التي ترد فيها.

(1) المصدر نفسه، ص 315.

4. المعاناة بالحزن والوجاعة الداخلية.

إن جراح الأسى والحزن ظلت علامة فارقة في قصائده؛ دلالة على المرحلة العصيبة التي مر بها الشاعر في اغترابه ونفيه وسجنه؛ ومن يطّلع – على قصائده – يلحظ هذه النبرة الاغترابية الحزينة، التي تدمي الفؤاد وتبين هول المكابدة وعمق المعاناة في ظل واقع مؤلم؛ لهذا، يحاول دائماً إظهار الوجاعة بالحط من الذات، والواقع الدنس الذي تعيشه هذه الذات؛ قائلاً:

«يا متهمًا بالشعرِ العربيّ

.....

وأنا سافلْ

وعشاءُ الليلِ البارد

والماءُ وفجرُ اليومِ القادمِ سافلْ

ما يؤخذُ بالقوةِ لا يُسترجع إلا بالقوة»[1].

إن لفظة (سافل) – في هذه القصيدة – جاءت بنظر الشاعر رداً اغترابياً على دناسة الواقع، ودناسة الذات التي تعيش في ظل هذا الواقع.

وثمة قصائد يتبدى فيها إيقاع الغربة والوجاعة الداخلية بوضوح، كما في قوله:

«بكلِّ أناقةٍ أرى وجهي

وغربتي

وقروحي

وتصعد بين المظلات صوبَ الوجوهِ الحزينةِ روحي

---

(1) المصدر نفسه، ص، 339 - 340.

وأعرفُ وجهًا يفرحُ قلبي به

وأكشفُ بين يديهِ التي تعرفُ اللطفَ كلَّ جروحي

وأرسيتُ بينَ القواربِ حزني

ما عادَ لي أنيسٌ سوى دفتري

والذي يعرفُ الحزنَ يعرفُ كيفَ تعذَّرَ وزني

حزينٌ أحاولُ أن أسألَ الحزنَ ماذا يسببُ حزني»[1].

تتمفصل مداليل القصيدة على إيقاع الحزن والغربة والاحتراق النفسي الشعوري المأزوم؛ إذ إن كل جملة تتقطر أسىً وشعوراً وانكساراً نفسياً مؤلماً؛ غاية في الوجاعة والانكسار النفسي الارتكاسي الحزين، كما في قوله: (حزينٌ أحاولُ أن أسألَ الحزنَ ماذا يسببُ حزني)؛ واللافت هذا النفس الشعوري الاغترابي الحزين الذي ينم على وجاعة داخلية؛ تصل حدَّ الاحتراق غربةً وأسًى؛ وهكذا، يؤسس الشاعر مظفَّر النوَّاب إيقاع قصائده على الثورة والانفعال والصخب الاغترابي حيناً، والوجاعة والانكسار والتمزق النفسي حيناً آخر، مما يجعل قصائده متوترة ذات صدى عاطفي مأزوم في كثير من الأحيان.

(1) المصدر نفسه، ص 424.

5. المعاناة بتصوير الجرائم والقتل وإراقة الدماء.

يكثر الشاعر مظفَّر النوَّاب من السياقات التي تصور الجرائم والانتهاكات التي تطال الأبرياء؛ مكثفاً – من خلال تلكم المشاهد – جراحاته الداخلية وصدى نفسه المتأزمة؛ إزاء الواقع المرير الذي تعيشه البلاد العربية من ضعف وانقسام واحتلال؛ امتد من فلسطين إلى العراق؛ راصداً الأحداث الدموية في فلسطين رصداً دقيقاً؛ مصوراً الجرائم الوحشية بشتى فظاظتها وبشاعتها أمام المتلقي؛ كاشفاً من خلالها معاناته الداخلية، معاناة النفي والاغتراب والتشتت والضياع، إذ يقول:

«لا تقتربوا.. لا تقتربوا

لحمُ الأطفالِ سيلعبُ

والغميضةُ شاملة

هذي اللعبةُ لا يقطعها أحدٌ أبداً

.....

لا تقتربوا.. لا تقتربوا.. لا تقتربوا

ماذا ثمنُ الطفلِ الواحد؟

ماذا ثمنُ الغمَّازة؟

ماذا ثمنُ العينينِ الضاحكتينِ صباحًا..؟

ماذا ثمنُ الحملِ الطيِّبِ في زاويةِ الخيمة..؟

.....

ماذا ثمنُ الشفتينِ مناغاةً وحليبًا..؟

كلا.. كلا.. كلا..

لا تقتربوا

لحمُ الأطفالِ سيلعبُ والغميضةُ شاملة

للقاتلِ شيءٌ آخر غيرُ القتل

كم القتلُ قليلٌ في هذا الموضعِ

.....

جماهيرُ الصمتِ تغضُّ الأنظار.. هذا خجلٌ

لا تقتربوا أكثر من ذلكَ

فالمذبحةُ الآن مشوهةٌ

جثث الأطفالِ بلا فرح

وأميزُ رائحة الرضع

والخرزُ الأخضرُ يورقُ في اللحمِ المحروق

لن أبكي - إطلاقًا -

.....

بصمت سيروا...

كونوا ليلاً وتراتيلاً دامية»[1].

هنا، يصور الشاعر الواقع الدموي المؤلم الذي أكثر ما نجده على أرض فلسطين من تمزيق وتمثيل سافر بالجثث والأشلاء المبعثرة هنا وهناك؛ محاولاً بث هذا الواقع بأسلوب تعروي فاضح؛ غاية في المكاشفة والتعرية والنقد اللاذع؛

(1) المصدر نفسه، ص 171 - 177.

وهنا قام الشاعر بتصوير هذا الواقع بدموية شديدة؛ دلالة على عمق المأساة وفداحة المشهد الشعوري الدموي المجسّد، كما في قوله: «فالمذبحةُ الآن مشوهةٌ، جثثُ الأطفالِ بلا فرح، وأميزُ رائحةَ الرضع، والخرزُ الأخضرُ يورقُ في اللحمِ المحروق، لن أبكي إطلاقا»؛ وهكذا؛ عبر الشاعر في قصائده عن معاناته إزاء الأحداث الدامية المروعة التي تجرح الفؤاد وتدمي القلب؛ خصوصاً عندما تطال الأطفال الأبرياء العزل في فلسطين؛ ومن هنا، يتأكد لنا أن نصوص الشاعر مظفَّر النوَّاب تضج بأنواع المعاناة والمكابدة والجراح؛ لهذا تصطهج بالنفس الشعوري الانفعالي الحاد والألفاظ النابية؛ دلالة على عمق المأساة ومرارة الجراح؛ ولا عجب في ذلك فهو القائل:

«من أقصى الحزنِ أتيتْ

لأغلقَ أبوابَ بيوتِ المهزومين

وأبشِّر بالإنسان

وبالإنسان

وبالشيَّاح

وبمن لا يملكُ سقفًا، سيكونُ لهُ سقفٌ، في هذي الدنيا وينام

أنا لا أملكُ بيتًا أنزع فيه تعبي

لكني كالبرقِ أبشِّرُ بالأرض

وأبشرُ أنَّ الأمطارَ ستأتي وستغسلُ من لوحتِنا كلَّ وجوه المهزومين

وستغسلُ بالمطرِ الدافئ

جنحَ النورسِ

وبيوتَ أحبتنا

والحرفَ الأولَ في لغتي

يا زهرةَ بيتي

يا وطني

أمطرني حزنُ بلادي

أمطرُ فوقَ الماء...

الماءُ طريق للغرباء

الماءُ طريقةُ عرسي

والزهرةُ... والرشاشُ

وخبزُ الصمغِ

عشاءُ النجمةِ في الليلِ وعشائي»[1].

إن جراح المعاناة والحزن تغلف قصائد الشاعر مظفَّر النوَّاب؛ إلى درجة الإشباع والتآسي العميق؛ إذ إن كل جملة من قصائده تعتصر أصداء المعاناة ومرارة الجراح؛ والتشرد والغربة والضياع، كما في قوله: «أنا لا أملك بيتاً أنزع فيه تعبي»؛ إن هذه الرؤية الاغترابية تأكدت أكثر بقوله: «الماءُ طريقٌ للغرباء، الماءُ طريقةُ عرسي، والزهرةُ... والرشاش، وخبزُ الصمغ، عشاءُ النجمةِ في الليلِ وعشائي»؛ وهكذا؛ تتأسس مداليل قصائد الشاعر مظفَّر النوَّاب على جذر المعاناة والوجاعة الداخلية، والإحساس بالحزن والثورة والتمرد على الواقع؛ ارتداداً نفسياً لما يعانيه من ضغوطات نفسية تملكت فؤاده في الكثير من الأحيان، لتخرج القصيدة عن نطاقها اللغوي الضيق إلى نطاق الشذوذ في التعبير والإباحية في التقريع إلى درجة الاستهجان في بعض الأحيان.

(1) المصدر نفسه، ص 311 - 314.

- نتائج واستدلالات:

1. إن ما يميز قصائد مظفَّر النوَّاب الفصحى إيقاعها الانفعالي العاطفي الصاخب؛ ونفسها الشعوري المصطهج بالتمرد والثورة والغربة والوجاعة الداخلية؛ في حين جاءت قصائده بالعامية ذات نفس شعوري غزلي عاطفي جمالي أكثر انسيابية ودفئاً روحياً شفيفاً؛ من القصائد الفصيحة.

2. تمتاز قصائد مظفر النواب الفصحى بإيقاعها الاغترابي، الذي يضج بالمعاناة والقلق والانكسار الشعوري الحزين؛ لهذا يغلب عليها مسحة من الحزن والغضب إلى درجة خروج الشاعر عن طوره بمفردات تعروية نابية.

3. إن ثمة نزوعاً تأملياً صوب القضايا القومية، لهذا؛ يغلب على قصائده العنف الثوري والضجة الانفعالية والصخب النفسي؛ في جل جمله؛ وكأن مظفَّر النوَّاب يحارب بالكلمة؛ لتأتي بوقعها النفسي الحاد فاعلة في إصابة الهدف بشكل خطابي مباشر، دون حاجة إلى تأويل أو اعتصار فكري في تأمل مداليلها؛ نظراً إلى وضوحها التام؛ وإصابتها الهدف المنشود مباشرة دون كبير عناء.